﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣١﴾ [الأعراف: 131]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرّبْـطُ بين عِـقـابِ قَـوْمِ فرعونَ بالقَحْطِ والـنّـقْـصِ، وبيانِ صَلَفِهم وغُرورِهم

ابتُلوا بالجَدْب ونقص الثَّمرات؛ رجاءَ التذكير، فلم يقع المرجوُّ، وصاروا إذا أُخْصِبوا وصَحُّوا قالوا: نحن أحِقَّاءُ بذلك، وإذا أصابهم ما يسوؤُهم تشاءَمُوا بموسى، وزعموا أنَّ ذلك بسببه[1]، فبيَّن تعالى أنَّهم مع تلك المحن عليهم، والشَّدائد، لم يعتبروا بهذا الامتحان، ولم يزدادوا إلَّا تمرُّدًا وكُفْرًا[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾ و﴿طَٰٓئِرُهُمۡ﴾: (طير) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على خِفَّة الشَّيء في الهواء، ثمَّ يُستعار ذلك في غيره، وقولهم: تَطيَّر مِنَ الشَّيء، اشتقاقُه مِنَ الطَّير، كالغُراب وما أشْبهه. وقَوْلهم: ﴿ٱطَّيَّرۡنَا﴾ [النّمل: 47] تَشاءَمْنا، وَقيل للشُّؤم: طَائِر وطَيْر وطِيَرة؛ لأنَّ العَرَب كان مِن شَأْنهَا عِيَافَةُ الطَّير، وزجْرُها، والتَّطَيُّر ببارحِها، وبنَعِيق غِرْبانها، وأَخْذِها ذاتَ اليَسار إذا أَثَارُوهَا، فَسَمَّوا الشُّؤمَ طَيرًا، وطائِرًا، وطِيَرَةً؛ لِتشاؤُمِهم بهَا وبأفعالها، ومِنَ الباب: طائرُ الإنسان، وهو عملُه الذي قُلِّدَه، والطَّائر: مِنَ الزَّجْر في التَّشَؤُّم والتَّسَعُّد، والتَّطايُرُ: التَّفَرُّقُ والذَّهابُ[3]، وقيل: الشَّقاءُ، والسَّعادَةُ[4].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/369 - 370.
(2) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 5/170.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن سيده، المُحكم: (طير)، والغزنويّ، باهر البرهان: 1/527.
(4) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (طير).

و﴿طَٰٓئِرُهُمْ﴾: حَظُّهُم مِنَ الخَيرِ والشَّر، والمعنى: إنَّ لِكُلِّ امْرِئٍ حَظًّا مِنَ الخَيرِ والشَّرِّ قد قَضَاه الله، فَهُوَ لازِمٌ عُنُقَه[1].

فمعنى (التَّطَيُّر): التَّشاؤم، وأُخِذَ مِن زَجْر الطَّير، أو مِن مُفارقة الشَّيء مَقَرَّه إلى الهواء، ومِنَ المفارقة إلى غير محدَّد استُعمِل في الحظِّ مِنَ الخير، أو الشَّر، أو النَّصيب غيرِ المعروف أو المُحَدَّد سَلفًا[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

سُـوءُ تـقـديـرِ آلِ فـرعـونَ لمعاني التّفاؤُلِ والـتّـشـاؤُمِ، وتَناسِي أنّ الأمْرَ كلَّه بيَدِ الله

فَإذا جاءَتْ آلَ فرعونَ الحسنةُ مِنَ الغيثِ، والرَّخاءِ، والخِصْب، والسَّعةِ، والعافيةِ، والسَّلامة مِنَ الآفات، وغيرِ ذلك قالُوا: نحن مُستَحقُّون لها ونحنُ أهْلُها، على العادة التي جرتْ لنا في سَعة الأرْزاق، وصِحَّة الأبدان. ولم يَرَوا ذلكَ مِن فضل الله عليهم فيشْكُرُوه على إنعامه، وإن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ مِنَ القَحْطِ، والجَدْبِ، والمرضِ، والبلاءِ، وغيرِ ذلك، ورَأَوا ما يكرهون في أنفسهم، يتشاءَمُوا بِمُوسى ومَن مَعَهُ، ويقولوا: لم يُصبْنا البلاءُ إلَّا حينَ رأيناهم، وما ذلك إلَّا بِشُؤم موسى وقومِه، وإنَّما نَصِيبُهم مِنَ الخِصْب، والجَدْبِ، والخير، والشَّرِّ كلِّه، مِنَ الله لا مِن غيره، ولكِنَّ أَكْثَرَ قوم فرعونَ لا يَعْلَمُون أنَّ ما أصابَهم مِنَ الله تعالى[3]، وليس للعباد مَدْخَلٌ في ذلك، فتراهم يُضيفون الأشياءَ إلى أسبابٍ يتوهَّمُونَها[4].

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى نفْي الشُّؤم، والتَّطَيُّر، وإبطالِهما؛ ليَعلمَ النَّاسُ أنَّ ما يُصيبهم من السَّيِّئات لا يُصيبهم بشُؤم أحدٍ يكون فيهم، وينبغي لمَن أصابته سيئةٌ أن يبحث عن سببها من

(1) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (طير).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (طير).
(3) الخازن، لباب التأويل: 2/239.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/89.

نفسه، ولا يكتفي بإسنادها إلى شُؤم غيره ممَّن ليس له فيها عمَلٌ ولا كسْبٌ؛ لأنَّ السَّيِّئة تُصيبُ الإنسانَ - بما تقدَّم شرحُه آنفًا - مِن تقصيره، وخروجه بجهله أو هواه عن سُنَّة الله في الْتِماس المنفعة مِن أبوابها، واتِّقاء المضارِّ باتِّقاء أسبابها[1].

وأفادتِ الآيةُ أيضا ضرورةَ الاتِّعاظ بالرَّخاءِ أو بالشَّدائد، فلا ينبغي أن يَزْدادَ المرءُ بالرَّخاء، والخِصْب غُرورًا وبطرًا، وبالشَّدائد والمحن عِنادًا ومُكابرةً، فينسبَ أسبابَ البركات إلى غير المُنعِم جلَّ وعزَّ، ويُصِرَّ على ذلك مِن دون توبةٍ[2]، والمعلومُ في أحوال النَّاس أنَّهم في حال الشِّدَّة يكونون أضرعَ خُدودًا، وألينَ أعطافًا، وأرقَّ أفئدةً[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ اخْتِيارِ حروفِ الجرِّ، وتقديمِ الضَّميرِ:

قَـضْـدُ النَّـظْـمِ الـخـاصِّ، تَفريعُ الكلامِ، واسْـتِـحـقـاقُ الحسنةِ

الفاء في: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ حرفُ عطفٍ، جاء لتفريع هذا الخبر على جملة: ﴿أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف: 130]، أي: فكان حالُهم إذا جاءتهم الحسنة... إلخ، والمعنى: فلم يتذكَّروا، ولكنَّهم زادوا كُفرًا وغُرورًا[4]، و﴿فَإِذَا﴾ شرطيَّة للتَّكرار، واللَّام في قوله: ﴿لَنَا﴾ للاستحقاق، كما تقول: السَّرجُ للفَرَس، أي: هذه الحسنة حَقٌّ لنا؛ لأنَّهم بغرورهم يحسَبون أنَّهم أحْرياءُ بالنِّعم، أي: فلا يَرون تلكَ الحسنةَ فضلًا مِنَ الله ونِعمة[5]، وأكَّد معنى ظنِّهم استحقاقَ الحسنةِ تقديمُه مع ضمير التَّعظيم المجرورِ (نا)، على اسم الإشارة ﴿هَٰذِهِۦ﴾.

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 5/219.
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 5/358.
(3) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/144.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/64.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/65.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ باسْمِ الإشارةِ ﴿هَٰذِهِۦ﴾:

الإشـــارةُ إلـى الـمـاحِّ بـالـغـفـلـةِ أوِ الإنكارِ، له أثرُه في تَوجيهِ الدّلالةِ

التَّعبير باسم الإشارة: ﴿هَٰذِهِۦ﴾ الدَّالِّ على الإبهام، إلماحٌ بإنكارهم مصدرَ هذه الحسنات، وعدم إحاطتِهم بِكُنْهِ موفورِ العطايا، وحقيقةِ هذه النِّعم على الوجه الَّذي أرادَهُ المُنْعِمُ جلَّ في عُلاه وابْتَغَاهُ، مُعدِّدًا وجوهَهُ ومظاهرَهُ.

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالمجيءِ بصِيغةِ الماضِي، والإصَابةِ بالمضارعِ:

تَـحـقُّـقُ مجيءِ الـحـسـنـةِ، وتَجَدُّدُ السَّيِّئةِ، وتَـعَـدُّدُ مصادرِ كلٍّ منهما

عَبَّر عن مجيء الحَسَنة بالفعل الماضي: ﴿جَآءَتْهُمُ﴾؛ دلالةً على وقُوعِها، وتَحقُّقِ مجيئها، وانقضائِها انقضاءً حقيقيًّا؛ إذ غلب أن يكون فعلُ الشَّرطِ مع (إذا) فعلًا ماضيًا؛ لكون الماضي أقربَ إلى اليقين في الحصول مِنَ المستقبل، وبنى فعلَها للمعلوم؛ لأنَّ مصْدَرَها مِنَ اللّه تعالى لا غير، وبنى فعلَ السَّيِّئة للمَجْهول: ﴿تُصِبْهُمْ﴾؛ لتعدُّد مصادرِ كَسْبها، ولاسيما النَّفْس، ومِصداق ذلك قولُه تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: 79]، وجاء بها بصيغة المضارع للدّلالة على تجدُّدها لهم؛ لإصرارهم على الغَيِّ، والكُفْران، والجُحُود، ومِصْداقُه الآيةُ الكريمة بعدَها: ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

دَلالةُ التَّعْبيرِ عنِ الحسنةِ بـ﴿جَآءَتْهُمُ﴾، وعنِ السَّيِّئةِ بـ﴿تُصِبْهُمْ﴾:

مفهومُ الحسنةِ والسَّيِّئةِ، في نَظَرِ قَوْمِ فرعَونَ السّادِرين في الغَيِّ

ورد التَّعبيرُ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾، بقدوم الحسنة بالمجيء، والتَّعبير بوقوع السَّيِّئة بالإصابة؛ للدّلالةِ على الفرقِ بينَ الحسنةِ والسَّيِّئة في نظر قوم فرعون، فالحسنةُ عندَهم: هي ما يتمنَّوْنَه ويطلبونَهُ ويُحبُّونَهُ، والسَّيئةُ في مفهومهم: هي ما يكرهونَهُ ويخافونَهُ ويَفرُّون منه.

كما أنَّ التَّعبير بقدوم الحسنة بفعل بالمجيء يدلُّ على أنَّ الحسنة

تأتي مِنَ الله تعالى بإذنه ورحمته وفضلِه، وأنَّ المؤمنين يستقبلونها بالشُّكر والحمد والرِّضا.

أمَّا التَّعبير بوقوع السَّيِّئة بفعلِ الإصابة فيدلُّ على أنَّ السَّيِّئةَ تأتي مِنَ الله تعالى، كذلك بحكمته وقُدرته وعَدْله، وأنَّ المجرمين يصابون بها بسبب ذنوبهم وجرائمهم وظلمهم، وهو مصداقُ ما قرَّره اللهُ تعالى بقوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: 79]؛ فما أصاب الإنسانَ مِن خير ونِعمة فهو مِنَ الله تعالى وحدَه، فضلًا وإحسانًا، وما أصابه مِن جَهْد وشِدَّة فبسبب أعماله السَّيِّئة، وما اقترفتْه يداه مِنَ الخطايا والسَّيِّئات.

سِرُّ تعريفِ (الحسنةِ)، وتنْكيرِ (السَّيِّئةِ):

التَّعريفُ جاءَ لإفادةِ الجِنْسِ قصْدًا إلى التَّكثير، والتَّنكيرُ لِبيانِ القِلَّةِ

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾، وفيه عُرِّفَتِ ﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾ بأل المعرِّفة لحقيقة الجنس؛ لتكونَ والنَّكرةُ سواءً، ووقوعُها ووقوعِ النكرةِ في سياق الشَّرط في هذه الآية يعمُّ كلَّ حسنة وكلَّ سيِّئة. والحسنة والسَّيِّئة هنا مُرادٌ بهما الحالةُ الحسنة والحالةُ السَّيِّئة[1]. فتعريفُ الحسنة، وتنكير السَّيِّئة فنٌّ عجيبٌ مِن فنون عِلْم المعاني؛ إذ عرَّف الحسنةَ باللَّام لإفادة الجنس قصدًا إلى التَّكثير، ونكَّر السَّيِّئة لبيان القلَّة[2]، وللدّلالة على حالِ قوم فرعون الذين كانوا ينسُبون كلَّ خيرٍ إلى أنفسهم ويستحِقُّونه، وينسُبون كلَّ شَرٍّ إلى موسى عليه السلام وأتباعِه ويتشاءمون به، وهذا يُظهِر جحودَهم وكُفرَهم وغرورَهم بأنفسهم، وعدمَ اعترافِهم بقُدرة الله تعالى وحِكمته في تدبير الأمور. كما أنَّ تعريف الحسنة وتنكير السَّيِّئة يُبْرِز التَّضادَّ بينَ المؤمنين والكافرين في رؤية الأشياء، فالمؤمن يرى كلَّ شيء مِنَ الله تعالى، فإذا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/65.

(2) جاهين، من صور البلاغة القرآنيَّة في سورة الأعراف، ص: 172.

أصابته نعمةٌ فهو يشكر الله عليها ويستخدمُها في طاعته، وإذا أصابته مصيبةٌ فهو يصبرُ عليها ويستغفرُ مِن ذنبه، ولا يقول إلَّا ما يُرضي ربَّه، أمَّا الكافر فيرى كلَّ شيء مِن نفسه، أو مِن غير الله، فإذا أصابته نعمةٌ فهو يفخر بها ويستعلي بها على خَلْق الله، وإذا أصابته مصيبةٌ فهو يَجْزَع ويَقْنَط ويَلُومُ مَن خالَفَه، ولا يقول إلَّا ما يُغضِبُ ربَّه.

دَلالةُ اقترانِ المُعرَّفِ بحرف التَّحقيقِ، واقترانِ المُنَكَّر بحرفِ الشَّكِّ:

سَعةُ إحسانِ اللهِ، إيحاءٌ بكثرةِ وقوعِ الحسناتِ، وندرةِ وقوعِ السَّيِّئاتِ

في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتهُمُ الحَسَنَةُ﴾ قُرِنَ تعريفُ الحسنة بأداة التَّحقيق ﴿فَإِذَا﴾ الشَّرطيَّة المفيدةِ للتَّكرار؛ لأنَّ الغالب في (إذا) الدّلالة على اليقين بوقوع الشَّرط، أو ما يقرب مِنَ اليقين، ووقوعُ جنسِ الحسنة كالواجب؛ لكثرته واتِّساعه، فالحسناتُ، أي: النِّعم، كثيرةُ الحصولِ، تنتابهم متواليةً؛ مِن صحَّةٍ، وخِصْبٍ، ورخاءٍ، ورفاهيَّةٍ؛ لأنَّ إحسان الله هو المعهود الواسع العامُّ لخَلْقه، والأصلُ الثَّابتُ: غلبةُ رحمةِ الله وفضلِه على سخطه وعقابه، بحيث إنَّ إحسانه لخَلْقه عامٌّ حتَّى في حال الابتلاء، ولأنَّ الحسنة أمرٌ محبوبٌ، فكلُّ أحدٍ يتمنَّاها، فيكونُ تعلُّق الإرادةِ بإحداثها بالذَّات؛ لأنَّ العنايةَ الإلهيَّة اقتضت سَبْق الرَّحمة، وعمومَ النِّعْمَة قبل حصول الأعمال.

وجِيءَ في جانب السَّيِّئة في قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ بحرف الشَّك (إنْ)؛ لأنَّ الغالب أن تدلَّ (إنْ) على التَّردُّد في وقوع الشَّرط، أو على الشَّكِّ، والنُّدور؛ ولكون الشَّيءِ النَّادرِ الحصولِ غيرَ مجزومٍ بوقوعه، ومشكوكًا فيه؛ جِيءَ في شرط إصابة السَّيِّئة بحرف (إن)، لنُدْرة وقوعِ السَّيِّئات، أي: المكروهاتِ عليهم، بالنِّسبة إلى الحسنات، فلا يقع إلَّا شيءٌ منها؛ لأنَّه أمرٌ مَذْمُوم، كلُّ أحدٍ يَحْذَره، ولعدم القصد لها وتعلُّقِ الإرادة بإحداثها إلَّا بالتَّبع والعَرَض؛ فإنَّ

النِّقمة بمقتضى تلك العناية إنَّما تُستَحَقُّ بسبب الأعمال السَّيِّئة، والشَّرِ الحاصل مِنَ النَّاس[1].

بَلاغةُ التَّعريضِ في الآية:

التَّعبيرُ عن قساوةِ آلِ فرعونَ، وسُوءِ تَصرُّفِهم؛ للإلماحِ إلى غَباوتِهم

في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾: يتضمَّن هذا التَّعبيرُ إغراقًا في وصفهم بالغباوة والقساوة، فإنَّ الشَّدائد تُرقِّق القلوب، وتُذلِّل العرائكَ، ولاسيَّما بعد مشاهدة الآيات، وهم لم تؤثِّر فيهم، بل زادوا عُتوًّا وانهماكًا في الغيِّ[2]. وفي ذلك تعريضٌ بأنَّ نِعَم اللّه كانت متكاثرةً لدَيهم، وأنَّهم كانوا مُعْرِضين عنِ الشُّكر، وتعريضٌ بأنَّ إصابتهم بالسَّيِّئات نادرةٌ، وهم يعُدُّون السَّيِّئات مِن جَرَّاء موسى ومَن آمن معه، فهم في كلتا الحالتين بين كافر بالنِّعمة، وظالمٍ لموسى ومَن معه، ولهذَين الاعتبارَين عُرِّفت ﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾ تعريفَ الجنس المعروف في عِلْم المعاني بالعهد الذِّهنيِّ، أي: جاءتهم الحسنات؛ لأنَّ هذا الجنسَ محبوبٌ مألوفٌ كثيرُ الحصول لدَيهم، ونُكِّرَتْ ﴿سَيِّئَةٌ﴾ لنُدْرَة وقوعِها عليهم، ولأنَّها شيءٌ غيرُ مألوفٍ حلُوْلُه بهم، أي: وإنْ تُصبهم أيَّةُ سيِّئة[3].

بَلاغةُ التَّعبيرِ بالطِّباقِ والجِناسِ:

إيضاحُ المعنى وبيانُه، لمَيْلِ النَّفسِ نحوَ التَّشوُّقِ والإصْغاءِ

﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾ ضِدُّ ﴿سَيِّئَةٌ﴾، وهما مِن طباق الإيجاب الذي يُفصِح عن دلالة الرَّبط المؤدِّي إلى مزيدِ إيضاحِ المعنى وبيانه.

وفي ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾ و﴿طَٰٓئِرُهُمْ﴾ جناسٌ اشتقاقيٌّ، أحدثَ ميلًا للنَّفس نحو التَّشوُّقِ والإصغاء، فضلًا عن إكساب التَّعبير جَمالًا وحُسنًا.

(1) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/144 - 145، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/30، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 4/370، وابن عادل، اللُّباب: 9/276، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/77، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/64 - 65، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 5/358.

(2) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/30.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/65.

نُكْتَةُ التَّعْبير بصِيغة التَّفعُّلِ، في قولِه: ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾:

التَّطيّرُ ظلمٌ للواقعِ، وجَوْرٌ على الحقِّ

و﴿يَطَّيَّرُواْ﴾: أصلُه يتطيَّروا، أُدغمت التَّاءُ في الطَّاء لقُرْب مخرجِهما، واشتقاقُ التَّطَيُّر مِنَ الطَّير؛ كالغُراب وشِبْهِه، وسُمِّي الشُّؤمُ ضِدُّ اليُمْنِ طيرًا وطائرًا؛ تسميَةً للمدلول باسم ما يدلُّ عليه، فإنَّهم يجعلون الطَّير والطَّائر أَمَارةً ودليلًا على شُؤْم الأمر، وبناءُ التَّفعُّل فيه للتَّجنُّب، أي: لبُعد الفاعل عن أصله، كَتَحَوُّبٍ، أي: تَجنُّبٍ وتباعُدٍ مِنَ الحُوْبِ، وهو الإثم[1]، أو أنَّهم صاغوه على وزن التَّفعُّل، لما فيه مِن تكلُّفِ معرفةِ حَظِّ المرءِ بدلالة حركاتِ الطَّير، أو هو مُطاوعة؛ سُمِّيَ بها ما يحصل مِنَ الانفعال مِن أثر طيران الطَّير، وكان العربُ إذا خَرجُوا في سَفَرٍ لحاجةٍ، نظروا إلى ما يُلاقيهم أوَّلَ سيْرِهم مِن طائرٍ، فكانوا يزعُمون أنَّ في مُروره علاماتِ يُمْنٍ وعلاماتِ شُؤْمٍ[2].

سِرُّ تَغْلِيبِ لفْظِ (الطِّيَرة) على (التَّشاؤُم):

تَوَقُّعُ الضُّرِّ أَدْخَلُ في النُّفوسِ، مِن رجاءِ النَّفْعِ المأنُوسِ

غلبَ لفظُ الطِّيرةِ على التَّشاؤم خاصَّة؛ لأنَّ للأثر الحاصل مِن دلالة الطَّيران على الشُّؤم دلالةً أشدُّ على النَّفْس؛ لأنَّ توقُّعَ الضُّر أدْخَلُ في النُّفوس مِن رجاء النَّفع. والمرادُ به في الآية: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ أنَّهم يتشاءمون بموسى ومَن معه، وقالوا: ما أصابَنا ما أصابَنا إلَّا بشُؤمهم ونَحْسِهم، فاستُعمل التَّطَيُّر في التَّشاؤم بدون دلالة مِنَ الطَّير؛ لأنَّ قوم فرعون لم يكونوا ممَّن يَزْجُر الطَّير، فيما علمنا مِن أحوال تاريخهم، ولكنَّهم زعموا أنَّ دَعْوَة موسى عليه السلام فيهم كانت سببَ مصائبَ حلَّت بهم، فعُبِّر عن ذلك بالتَّطيُّر على طريقة التَّعبير العربيِّ[3].

(1) حقي، روح البيان: 3/217.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/65.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/66.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالباءِ، في: ﴿بِمُوسَىٰ﴾:

التَّطَيُّرُ بالهُدَى النّاصِعِ، والوخيِ السّاطِعِ، سَفاهةٌ وضلالةٌ

الباءُ بعدَ فِعْلِ التَّطَيُّرِ هي باء السَّببيَّة، تدخل على مُوجِبِ التَّطَيُّر، وهو قوله: ﴿بِمُوسَىٰ﴾، وعُطِف عليه: ﴿وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾، أي: مَن آمنوا به؛ لأنَّ قوم فرعون يَعُدُّون مُوجِبَ شُؤْم موسى هو ما جاء به مِنَ الدِّين الخارجِ عن أعرافهم وتقاليدهم؛ لأنَّه لا يُرضِي آلهتَهم ودينَهم، ولولا دِينُه لم يكن مشؤومًا، كما قالت ثمود: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود: 62][1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بأداةِ الاسْتِفتاحِ والتَّنبيهِ:

إبرازُ كَمالِ العِنايةِ بالمضمونِ، من شأنِه إيضاحُ الدّلالةِ المُتاحَةِ

قولُه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ استئنافٌ مَسُوقٌ مِن قِبَله تعالى؛ لردِّ مقالتِهم الباطلةِ، وخرافاتهم مِنَ التَّشاؤم بموسى ومَن معه، وإحقاقِ الحقِّ في ذلك، أي: ليس سببُ خيرِهم إلَّا عنده تعالى، وهو حُكْمُه ومَشيئتُه المُتَضمِّنةُ للحِكَم والمصالحِ، أو ليس سببُ شؤمِهم - وهو أعمالُهم السَّيِّئة - إلَّا عندَه تعالى، أي: مكتوبةٌ لدَيه، فإنَّها التي ساقت إليهم ما يسوؤهم، لا ما عداها[2]. وتصديرُه الرَّدَّ عليهم بأداة الافتتاح والتَّنبيه: ﴿أَلَآ﴾؛ للتَّنبيه والاهتمامِ بالخبر الواردِ بعدَه، وتوكيده، وإبرازِ كمالِ العنايةِ بمضمونِه؛ تعليمًا للأُمَّة، وتعريضًا بمشركِي العرب[3]، إذِ المرادُ بها: توجيهُ ذِهْن القارئِ لما يُلْقَى بعدَها؛ حتَّى لا يفوتُه شيءٌ منه، أي: ألَا فلْيَعْلَموا أنَّ الشُّؤمَ الذي نسبوه إلى موسى، وعَدُّوه مِن آثار وُجوده فيهم، هو عند الله تعالى، لا عند موسى ومَن معَه[4].

وناسبَ كَذِبَهم في موضعي: (مجيء الحسنة، والإصابة بالسَّيِّئة)، الاستئنافُ على وجه التَّأكيد: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ﴾، أي: قَدَرُهم الذي سَبق في الأزل مِنَ الخير والشَّرِّ، فلا يَزداد ولا يَنقُص[5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/66.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/264.
(3) قباوة، المُفَصَّل، ص: 592، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/67.
(4) محمد رضا، تفسير المنار: 9/77.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/89.

بَلاغةُ المجازِ، والإظهارِ في مقامِ الإضمارِ، في قوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾:

الشَّيءُ المُتَصرَّفُ فيه كالمُستقِرِّ في مكانٍ، وهو كذلك للمُبالغةِ في الذَّمِّ

و﴿عِندَ﴾ مستعمَلةٌ في التَّصرُّف مجازًا؛ لأنَّ الشَّيء المُتَصرَّفَ فيه كالمستقِرِّ في مكان، أي: سببُ شؤمِهم مُقدَّرٌ مِنَ اللهِ[1]، المَلِكِ الذي لا أمرَ لغيره، وقد قَدَّر كلَّ شيء، فلا يَقْدِر على المَجِيء به غيرُه أصلاً[2]. وفي الجُملة: إظهارٌ في مقام الإضمار؛ إذ قال: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، ولم يَقُل: (عندي)؛ مبالغةً في ذمِّهم، بوصْفِهم أنَّهم لا يعلمون، وتعظيمًا وتَلَذُّذًا بذِكْر الاسم الشَّريف، أي: الذي له القدرةُ الكاملةُ، والعِلْمُ الشَّامل[3].

وَجْهُ تَعَدُّدِ القراءاتِ، في قوله: ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾:

تَحقُّقُ وقوعِ الفعْلِ، وثُبُوتُه فيهم، دليلٌ على تأصُّلِ هذا الأمْرِ عندَهم

وقُرِئَ شاذًّا: (تَطَيَّرُوا) بالتَّاء وتخفيف الطَّاء، فعلًا ماضيًا، وهو جواب: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾؛ ليكون فِعْلُ الشَّرط مضارعًا، وفعلُ الجزاءِ ماضيَ اللَّفظ[4]، وتُفيد صيغةُ مُضيِّهِ تَحقُّقَ فعلِ التَّطَيُّر بمن أُصيبَ بالسَّيِّئة، أو سيُصابُ بها، وانقضاءَه، وثبوتَه فيهم.

بَلاغةُ التَّصريحِ بلفْظِ: (الطَّائر)، على طريقِ الاستعارةِ:

تسميةُ المدلولِ باسمِ الدَّليلِ، بناءً على أنَّهم يَستدلُّون بالطَّيرِ على الشُّؤْمِ

الطَّائر: اسم للطَّير الذي يثار ليُتَيَمَّن به أو يُتشاءم[5]، وهو مأخوذ مِن زَجْر الطَّير، فسُمِّيَ ما عند الله مِنَ القَدَرِ للإنسان طائرًا؛ لمَّا كان الإنسان يعتقد أنَّ كلَّ ما يصيبه إنَّما هو بحسب ما يراه في الطَّائر، فهي استعارة[6] تصريحيَّة تبعيَّة؛ إذ عبَّر عمَّا عند الله تعالى بالطَّائر، تشبيهًا له بالطَّائر الذي يُستدلُّ به على الخير والشَّرِّ، أو سببُه شؤمُهم عند الله تعالى، وهو أعمالهم السَّيِّئةُ المكتوبةُ عنده، فإنَّها التي ساقت إليهم ما يسوؤهم لا ما عداها، فالطَّائر عبارةٌ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/67.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/89.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 6/464.
(4) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 2/443، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 4/370. وهي قراءة شاذة.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/67.
(6) الشّريف الرّضّي، تلخيص البيان، ص: 76، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/443.

عنِ الشُّؤم، على طريق تسمية المدلول باسم الدَّليل؛ بناءً على أنَّهم يستدلُّون بالطَّير على الشُّؤم[1]، فاستُعير هنا للسَّبب الحقِّ؛ لحلول المصائب بهم بعلاقة المُشاكلة، لقوله: ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾، فشُبِّه السَّببُ الحَقُّ - وهو ما استحقُّوا به العذابَ مِن غضب الله - بالطَّائر[2].

سِرُّ أُسلوبِ القَصْرِ، بالأداةِ ﴿إِنَّمَا﴾:

﴿إِنَّمَا﴾: أداةُ حصر، قَصَرَتِ الصِّفةَ على الموصوف، وجِيء بها للمبالغة في التَّوكيد، والقَصْرُ المُستفادُ منها إضافيٌّ، أي: سوءُ حالهم عِقابٌ مِنَ الله، لا مِن عندِ موسى ومَن معه، فلا ينافي أنَّ المؤمنين يعلمون أنَّ سببَ حلولِ المصائب بأهل الشِّرك المعاندين للرُّسل، هو شِركُهم وتكذيبُهمُ الرُّسلَ، فهم يعلمون ذلك بأخبار الرُّسل، أو بصدق الفِراسة وحُسْن الاستدلال. فأمَّا المشركون وأضرابُهم مِن أهل العقائد الضَّالَّة، فيُسندونَ صدورَ الضَّرر والنَّفع إلى أشياءَ تُقارِنُ حصولَ ضُرٍّ أو نفع، فيتوهَّمون تلك المقارنةَ تسبُّبًا، ولذلك تراهم يتطلَّبون معرفةَ حصولِ الخير والشَّر مِن غير أسبابها، ومِن ذلك الاستقسامُ بالأزلام[3].

سُوءُ حالِ القومِ، عِقابٌ مِنَ اللهِ العظيمِ، لا مِن عندِ موسَى الكليمِ

قَصْديَّةُ التَّعْبيرِ بالاعتراضِ، والاسْتِدراك:

جملة: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ معترضةٌ؛ ولذلك فُصِلَت، والاستدراكُ المُستفاد مِن ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ عمَّا يوهمُه الاهتمامُ بالخبر الذي قبله؛ لاقترانه بأداة الاستفتاح، واشتماله على صيغة القصر: مِن كون شأنِه أن لا يجهلَه العقلاءُ، فاستدركَ بأنَّ أكثر أولئك لا يعلمون، فهو توكيدٌ لما قبله، وتحقيقٌ لما بعدَه بالحصر، فالضَّمير في قوله: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ عائدٌ إلى الذين ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾، وإنَّما نفى

تَوكيدُ (وَإِنْ تُصِبْهُم سَيِّئَةٌ يَطَّيَّروا) لما سَبَقَ، وتَحقيقٌ لما لَحِقَ

(1) حقِّي، روح البيان: 3/218.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/67.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/67.

العلمَ عن أكثرهم تنبيهًا على أنَّ قليلًا منهم يعلمون خِلاف ذلك، أي: يعلمون أنَّ ما أصابهم مِنَ الخير والشَّرِّ مِن جهة الله تعالى، أو يعلمون أنَّ ما أصابهم مِنَ المصائب والبلايا ليس إلَّا بما كسبتْ أيديهم، ولكنَّهم يُشَايعُون مقالةَ الأكثرين[1]، فلا يعملون بمقتضى عِلْمهم عِنادًا واستكبارا[2].

بَلاغةُ الإضْمارِ استغناءً بالمذكورِ عنِ المستورِ:

إطلاقُ الجَهلِ، ونَفيُ العِلْمِ بمشْمولاتِه، من بليغِ البيانِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إيجازٌ؛ بحَذْف ما دلَّ السِّياقُ عليه، والتَّقدير: ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون أنَّ طائرَهم عند اللهِ[3]، واستغنى بالمذكور اقتصادًا لفظيًّا، وإطلاقًا للجهل، ونفيًا للعِلْم بمشمولاته، وفي إسناد عدمِ العِلْم إلى أكثرهم؛ إشعارٌ بأنَّ قلَّةً منهم تعلم ذلك، ولكنَّها لا تعملُ بمقتضى علمها[4].

مُناسبةُ الفاصلةِ لسِياقِ الآيةِ:

مِن دَقيقِ النَّظْمِ إتمامُ الجَهلِ، وبيانُ عدَمِ العِلْمِ

ناسبت فاصلةُ الآية: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ مُفتَتَحها، بنسبة الحسنة والسَّيِّئة كذبًا وجهلًا، وناسبت أيضًا مُفتتحَ الآيةِ التي بعدَها؛ إذ حَسِبوا أنَّ ما أتى به موسى سِحرٌ، وهم بما جاء به لا يؤمنون، وذلك تمام الجهل، وعدمِ العلم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المَجيءُ والإصابةُ:

المجيء: الحصول والإصابة، وإنَّما عَبَّر في جانب الحسنة بالمجيء؛ لأنَّ حصولَها مرغوبٌ، فهي بحيث تُتَرقَّب كما يُتَرقَّب

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/67.

(2) حقّي، روح البيان: 3/218. ولابن عطيَّة ثلاثة توجيهات أخرى في لفظة: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾، استبعدها أبو حيَّان، وذكر أنَّ فيها تجوّزًا في العبارة، أعرضنا عن ذكرها لتجنّب المشتبه مِنَ التَّفسيرات، ممَّا يُثار حولَه الخلاف، يُنظر: ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/443، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 4/370.

(3) الإندونيسّي، الشَّامل: 1/421.

(4) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 5/358.

الجَائِي، وعَبَّر في جانب السَّيِّئة بالإصابة؛ لأنَّها تحصُل فجأةً مِن غير رغبة ولا تَرَقُّب[1]، فالمجيءُ مع الحسنة مجيءٌ مُجرَّدٌ مِنَ العُنف والشِّدَّة، ومع السَّيِّئة إصابةٌ، تعني: البطشَ والرَّدْع[2].

المجيءُ حُصولٌ مرغوبٌ، والإصابةُ مُفاجِئةٌ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/64.
(2) قباوة، المفصَّل، ص: 591.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 14 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-10-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 14 : المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-10-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0402725 بتاريخ 2023/12/30م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»